

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: 53]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الإخبار ببشارة
الولد، تأنييس
للوالد وإدخال
للسرور إلى قلبه

لما أخبر الله تعالى أن إبراهيم أخبر الملائكة بوجهه منهم، تشوّف السامع إلى جوابهم، فجاءت هذه الآية لإزالة الوجع من إبراهيم ﷺ (1).

❖ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: أصل البشارة: انتشار واسع على ظاهر الشيء: كانتشار جلد البدن على ظاهره، وانتشار الشعر على الجلد، وأصل البشر بالكسر: الطلاقة والبشاشة وبسط الوجه: ﴿فَبَشِّرْنَهُ بِّغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101]، ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: 57]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: 119] (2). والبشرى: ما يعطاه المبشر من الأمر، والجمع: بشر (3)، وهو الخبر الذي يغير البشارة من حزن أو سرور، ثم خص في عرف اللغة بالسرور، ولا تكون إلا بالخبر الأول (4)، فيقال: أبشرت الرجل، وبشرته أي أخبرته بأمر سار (5)، وسميت بذلك من البشر وهو السرور؛ لأنها تظهر طلاقة وجه الإنسان وفرحه، والمقصود بالبشرى في الآية: الخبر السار المفرح الذي يظهر البشاشة على الوجه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/66.

(2) جبل، العجم الاشتقاقي للؤصل: (بشر).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/238، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بشر).

(4) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص: 267، والبقاعي، نظم الدرر: 11/184.

(5) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 2/128، والعوتبي، الإبانة في اللغة العربية: 2/280.

✽ المعنى الإجمالي:

يُخبرُ الله تعالى في الآية ما قالت الملائكة، لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم، قالت الملائكة لإبراهيم على سبيل البشارة، وإدخال السرور على قلبه: لا تخف مِنَّا يا إبراهيم، ثم علَّلوا ذلك بقولهم مؤكِّدين لقلع ما في نفسه من الوجَلِ المُنافي للبُشرى، فقالوا: إِنَّا جئنا إليك لنُبشِّرَكَ بسلامٍ ذي عِلْمٍ كثيرٍ بشريعةِ الله تعالى وبأوامره ونواهيهِ، وهو إسحاقُ عليه السلام ⁽¹⁾.

بشارة الملائكة
بولادة إسحاق،
طردت مخاوف
إبراهيم،
وأشعرته بالأمان

✽ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلاغة الاستئناف البياني في الآية:

جاء الكلام على طريق الاستئناف البياني وذلك أن مقتضى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ﴾، أن يُتبع هذا القول بقول، فكأنه قيل: (فما قال الملائكة حين قال إبراهيم هذا القول)؛ لأنه يقتضي أن يكون من الملائكة كلام في تأنيسه وتسكينه ممَّا خامره، فكأنه قيل: فما قالوا حين رأوه وقد تغيَّرَ وَجَلٌ منهم؟، فقيل: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ جواباً عن ذلك ⁽²⁾.

اختصار الجوار،
من بلاغة
السياق القرآني
للتجيز

دلالة النهي في قوله ﴿لَا تَوْجَلْ﴾:

أفادت ﴿لَا﴾ النَّاهِيَّةُ طلب الكفِّ عن الوجَلِ بعد وقوعه من إبراهيم عليه السلام، ولما كان الوجَلُ وصفاً معنوياً كان المعنى: لا يكن منك وجَلٌ ولا ينبغي أن يكون بل ليكن منك الفرح؛ فإنَّا جئناك مُبشِّرين، وإن كنا لغيرك مُعذِّبين، أو يقال: لما كان الوجَلُ من الكيفيات النفسية كان النهي على معنى طلب الكفِّ عن السبب المؤدِّي إليه ⁽³⁾.

النهي عن
الوجَل، هو
الكف عن الوجَل
وأسبابه

(1) البقاعي، إرشاد العقل السليم: 11/66، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/55.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 240.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/275، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/173.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الْفَعْلِ ﴿لَا تَوَجَّلْ﴾:

الحذف بين
إرادة عموم
النهي، وطلب
ترك الاتصاف
بالوجل

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الْفَعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَوَجَّلْ﴾ لِإِفَادَةِ الْعُمومِ،
وَالْمَعْنَى: لَا تَوَجَّلْ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَقَامِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ
ﷺ، وَيَدْخُلُ فِيهِ النَّهْيُ عَنِ الْوَجَلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَيَحْتَمِلُ
أَنْ يَكُونَ الْحَذْفُ عَلَى مَعْنَى النَّهْيِ عَنِ الْإِتِّصَافِ بِالْوَجَلِ مُطْلَقًا، أَيْ
لَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَّصِفَ بِالْوَجَلِ وَلَا يَصِحُّ وَقُوعُهُ مِنْكَ، أَوْ بِمَعْنَى: لَا يَأْتِ
مِنْكَ الْوَجَلُ.

بَرَاءَةُ الْإِسْتِثْنَاءِ بِجُمْلَةِ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾:

البشارة تدفع
الخوف المرعب،
وتمنع الوجل
الرهق

جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِثْنَاءِ
الْبَيَانِيِّ؛ لِيَكُونَ جَوَابَ سُؤَالٍ تَقْدِيرِيٍّ عَنْ سَبَبِ النَّهْيِ عَنِ الْوَجَلِ،
لِيَفِيدَ الْإِسْتِثْنَاءُ مَعْنَى التَّعْلِيلِ وَبَيَانِ الْحُجَّةِ لِلنَّهْيِ عَنِ الْوَجَلِ، فَإِنَّ
الْمُبَشِّرَ لَا يُخَافُ مِنْهُ، وَالْمُبَشَّرُ لَا يَكَادُ يَحُومُ حَوْلَ سَاحَتِهِ خَوْفٌ وَلَا
حُزْنٌ، وَالْمَعْنَى إِنَّكَ بِمُثَابَةِ الْآمِنِ الْمُبَشَّرِ فَلَا تَوَجَّلْ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ بِأَنَّ
الْبَشَارَةَ تَدْفَعُ الْخَوْفَ وَالْوَجَلَ⁽¹⁾.

فَائِدَةُ أَدَاةِ التَّوَكُّيدِ (إِنَّ):

العمل على
قلع ما في نفس
إبراهيم ﷺ من
الوجل

لَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، قَدْ كَانَ لَهُ ظَنٌّ بِخِلَافِ مَا جَاءَتْهُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ
مِنَ الْبَشَارَةِ، وَلِهَذَا وَجَلَ مِنْهُمْ، كَانَ الْمَوْضِعُ مَوْضِعَ تَأْكِيدٍ بِ(إِنَّ)،
فَكَأَنَّ مَا رَأَاهُ مِنْهُمْ يَبْعُدُ مِثْلَهُ فِي الظَّنِّ أَنْ تَكُونَ الْبَشَارَةُ مِنْهُمْ،
فَجَاءَتْ (إِنَّ) لِتَأْكِيدِ بَشَارَتِهِمْ لَهُ ﷺ، وَلَقُلْعِ مَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَجَلِ
الْمُنَافِي لِلْبُشْرَى⁽²⁾.

بَرَاءَةُ تَقْدِيمِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ:

تأنيش الخائف،
منهج مع المؤلف
والمخالف

قُدِّمَ الْمُسَبَّبُ ﴿لَا تَوَجَّلْ﴾ عَلَى السَّبَبِ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، فَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/584، وأبو السَّعُود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/66.

نَبَشِّرُكَ بِغَلامٍ عَلِيمٍ فَلَا تَوَجَّلْ؛ لِلْمَبَادِرَةِ إِلَى تَأْنِيسِهِ وَدَفْعِ الْوَجَلِ مِنْ قَلْبِهِ، وَلِيَكُونَ النَّهْيُ عَنِ الْوَجَلِ عَامًّا كَمَا تَقَدَّمَ فِي سَبَبِ حَذْفِ مَتَعَلِّقِ الْفِعْلِ «لَا تَوَجَّلْ»، فَالْعَبْرَةُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ عَمُومُ حَذْفِ الْمَتَعَلِّقِ وَلَيْسَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ «نَبَشِّرُكَ»:

لَمَّا كَانَتِ الْبَشَارَةُ هِيَ الْخَبَرُ السَّارُّ الَّذِي يَبْسُطُ بَشْرَةَ الْوَجْهِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا سُرَّتْ انْتَشَرَ الدَّمُ فِيهَا انْتِشَارَ الْمَاءِ فِي الشَّجَرِ، فَتَبْسُطُ بَشْرَةَ الْإِنْسَانِ عِنْدَ السَّرُورِ عُبْرَ بِلَفْظِ «نَبَشِّرُكَ» لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا يُبَشِّرُونَهُ بِهِ يَعْقِبُهُ الْفَرْحُ وَالسَّرُورُ.

البشارة يعقبها
الفرح والسرور،
لما لها من أثر في
شفاء الصدور

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ (فَعَّلَ) فِي الْآيَةِ:

عُبِّرَ بِصِيغَةِ (فَعَّلَ) الدَّالَّةِ عَلَى التَّكْثِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «نَبَشِّرُكَ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي بَشَارَتِهِمْ؛ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ الْبَشَارَةَ بِالْغَلامِ الْعَلِيمِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ.

البشارة بالغلام
العليم، بشارة
عظيمة، لشيخ
زوجته عقيم

نُكْتَةُ إِسْنَادِ الْفِعْلِ «نَبَشِّرُكَ»:

لَمَّا كَانَ الْمَلَائِكَةُ قَدْ جَاءُوا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانُوا جَمِيعًا مُؤْتَمِرِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَ الْفِعْلُ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ جَمَاعَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ؛ لِلْإِذَانِ بِأَنَّ قَوْلَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ هُوَ قَوْلُ الْجَمِيعِ.

قول الواحد
من الملائكة
المرسلين، قول
لجميعهم

دَلَالَةُ مَجِيءِ الْمُسْنَدِ جَمْلَةً فِي السِّيَاقِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّا نَبَشِّرُكَ»، وَفِيهِ جَاءَتِ الْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ خَبْرًا عَنْ (إِنَّ) لِإِفَادَةِ تَقْوِي الْحُكْمِ، وَالْمَرَادُ تَحْقِيقُ تَبْشِيرِهِمْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِغَلامٍ عَلِيمٍ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ تَأْكِيدٍ لِكَبَرِ سَنَةِ هُوَ وَزَوْجُهُ، بِحَيْثُ لَا يُعْهَدُ الْوَلَدُ مِنْ مِثْلِهِمَا، فَيَكُونُ مَجِيءُ الْوَلَدِ مِنْهُمَا مُعْجَزَةً لَهُ ﷺ، فَاقْتَضَى الْخَبْرُ التَّأْكِيدَ⁽¹⁾.

إفادة (إِنَّ) تقوية
الحكم، لأن
المقام مقام تأكيد

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 212 - 222.

بلاغَةُ الْمَجَازِ الْمَرْسَلِ، فِي السِّيَاقِ الْأَمْثَلِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، لما كان لفظُ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾، بصيغة المضارع الدال على الحال كانت البشارة بالغلام العليم على طريق المجاز المرسل بتسمية الشيء بما يؤول إليه في المستقبل، فوصفوه في حال البشارة، بما يؤول إليه من البلوغ والعلم، ونكتة التعبير عنه بصيغة الحال الإيذان بأنه سيولد له غلامٌ عليمٌ، وأنه واقعٌ لا محالة، على سبيل اليقين.

معنى الباء في قوله تعالى ﴿بِغُلَامٍ﴾:

أفادت الباء هنا صحة تعدية الفعل إلى ﴿بِغُلَامٍ﴾، لتدل على تحقق البشارة بالغلام العليم.

سبب إثارة التعبير بـ ﴿بِغُلَامٍ﴾:

لما كانت البشارة على معنى الخبر السار المفرح الذي يكون غير متوقع عبّر بلفظ الغلام للإشعار بأنه ولد ذكر هو في غاية القوة وليس هو كأولاد الشيوخ ضعيفاً⁽¹⁾.

نكتة تنكير لفظ ﴿بِغُلَامٍ﴾:

يفيد التنكير هنا التّفخيم، للإشعار بأنه غلامٌ ليس كسائر الغلمان.

دلالة صيغة ﴿عَلِيمٍ﴾ في الآية:

تفيد الصيغة معنى المبالغة في الاتّصاف بالعلم، والمعنى: نُبَشِّرُكَ بغلام موصوفٍ بأنه ذو علمٍ غزيرٍ نافعٍ.

سرّ الوصف في قوله: ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾:

لما كانت البشارة ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، أفاد مجيء الموصوف مع صفته أنّ البشارة تفيد خمسة أمور: وجود الولد، وكونه غلاماً، وبقائه وعيشه إلى وقت البلوغ وهو وقت العلم؛ لأنّ الطفل ليس من أهل

الإخبار بالحال
عن المستقبل،
يفيد تحقّق
الوقوع

قد يكون في
سياق الكلام، ما
يؤكد الاطمئنان

تمام البشارة،
تكون بتمام
المعنى المبشّر به

التنكير
للتفخيم،
وسياق القصة
يفيد فخامة
الغلام

دلالة صيغة
المبالغة، على
التكثير في المعنى

توالي المبشرات،
بما يليق بمقام
النبؤات

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/66.

العلم، وتقيد أنه سيعلم، وأنه سيقبل العلم، ويكون عليمًا، وأني فرح فوق هذا⁽¹⁾، ولما كان خوفه لخفاء أمرهم عليه، كان للوصف بالعلم في هذا السياق مزيد مزية، فقالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ للإشعار بأن إبراهيم لم يعلم بأمرهم أول الأمر⁽²⁾.

توجيه القراءات القرآنية في ﴿نَبِّشُرْكَ﴾:

قرأ الجمهور ﴿نَبِّشُرْكَ﴾ من بشر بالتضعيف، فيكون من بشارات البشرء بالخبر السار، أي نخبرك بالخبر السار الذي يلزم منه الطمأنينة والفرح والسرور، فيكون الفرح والسرور لازماً للبشارة، ومن المعاني الثواني، ويضيد التضعيف التكاثر لتفخيم البشارة وكونها عظيمة ويلزم من التضعيف المبالغة في المعنى، وقرأ حمزة ﴿نَبِّشُرْكَ﴾ بفتح النون والتخفيف من البشر، فيكون من جهة الأفراح والسرور، والمعنى إنا نفرحك بسلام عليم، فتفيد هذه القراءة التعبير عن الفرحة بدلالة المطابقة، وهذا الفرق الدلالي بين القراءتين قد كان المشيخة من القراء المتقدمين يقولونه⁽³⁾.

توجيه التشابه اللفظي في الآية:

قال تعالى في هذه السورة: ﴿لَا تَوَجَّلْ﴾، وقال في سورة هود: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هود: 70] توسعة في التعبير عن الشيء الواحد بلفظين متقاربين، وخص الذي في سورة الحجر بـ ﴿لَا تَوَجَّلْ﴾ لموافقة قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ﴾ وما في هود بـ ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هود: 70] لموافقة قوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: 70]⁽⁴⁾.

وصف الحليم والعليم في سياق الآية:

وصف الله تعالى الغلام في هذه السورة، بقوله: (بِغْلَامٍ عَلِيمٍ)،

الفرق الدلالي
بين القراءتين،
يفصح عن
الدلول في
أحواله الممكنة

من عادة القرآن
اختيار اللفظ
المناسب للسياق

دقة السياق
في المناسبة
بين الصفة
والموصوف

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/448، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/275.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.

(3) الفراء، معاني القرآن: 1/212، والأزهري، تهذيب اللغة: (بشر)، وابن الجزي، النشر: 2/239.

(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 299.

وجاء في سورة الصافات: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ ١٣١﴾، وفيه وجهان: أحدهما أن يكون المراد بالعليم إسحاق ﷺ وبالحليم إسماعيل ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: 71]، فالتبشير وقع بإسحاق ﷺ، ولأن تبشير إبراهيم بعلم إسحاق ﷺ ونبوته فيه دلالة على بقاءه إلى كبره، وهذا يدل على أن الذبيح إسماعيل (1)، والوجه الثاني من التوجيه أنه لما كان العلم هو الذي يدعو صاحبه إلى كل خلق رفيع عبر بوصف العليم في هذه السورة لمناسبتة للسباق، وجاء في سورة الصافات الوصف بالحليم الذي يفيد النفي عن صاحبه كل خلق دنيء، لمناسبتة لحلمه في الانقياد لأبيه ولما أمره الله به، ولوعده أباه بالصبر في قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١٣٢﴾ [الصافات: 102]، فلا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعةً لربه، وكل ذلك دليل على تمام الحلم والعقل، فيؤذن الجمع بين الوصفين، أنه اجتمع فيه جميع الخصال الرفيعة، ونفي عنه كل خلق دنيء (2).

سرُّ البشارة في الآية:

ذكر الله تعالى أن قول الملائكة وبشارتهم كان لإبراهيم ﷺ، وحكي في سورة هود قولهم وبشارتهم لإمرأته، فقال تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: 71] ووجهه أن البشارة كانت لهما معاً، فقد تكون حاصلة في وقت واحد، أي في وقت اجتماعهما فهي بشارتان باعتبار المبشر؛ لأن المسرة تكون لكل واحد منهما، وقد تكون حصلت في وقتين متقاربين، بأن بشروه بانفراد ثم لما جاءت امرأته بشروها تكريماً لها كذلك وتأكيذاً للبشارة؛ لأن بشارة زوجها بابن بشارة له أيضاً (3).

البشارة خبوة،
سواء كانت
للزوجة أو
للزوجة، أو
لها معاً

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وابن جماعة، كشف اللعاني، ص: 308، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/481.

(2) للتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/448.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/116.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِشارةُ والخَبَرُ:

البِشارةٌ هِيَ أَوَّلُ ما يَصِلُ إِلَيْكَ مِنَ الْخَبَرِ السَّارِّ فَإِذَا وَصَلَ
إِلَيْكَ ثَانِيًا لَمْ يُسَمَّ بِبِشَارَةٍ وَكَانَ خَبَرًا⁽¹⁾، كَمَا أَنَّ الْبِشَارَةَ لَا تَكُونُ
إِلَّا فِيمَا هُوَ خَيْرٌ وَيَعْقُبُهَا السَّرُّورُ، وَأَمَّا الْخَبَرُ فَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا وَقَدْ
يَكُونُ غَيْرَ ذَلِكَ.

البِشارةٌ لَا تَكُونُ
إِلَّا خَيْرًا، وَالْخَبَرُ
قَدْ يَكُونُ خَيْرًا
وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ
ذَلِكَ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 264.